كتاب الشهر

الساعة الخامسة والعشرون

رواية بقلم كونستانتان جيورجيو

تقديم وتلخيص يوسف الشاروني

[ان الرجال الذين لا زالوا على انسانيتهم ، مرغمون على الاختفاء]

كونستانتان فرجيل جيورجيو مؤلف هذا الكتاب روماني الجنسية ، لكن الكتاب لم يظهر قط باللغة الرومانية لأسباب سياسية واضحة . وفي مقدمة الترجمة الفرنسية له – وهي اول ترجمة ظهرت للكتاب – يقول الفيلسوف الوجودي جابريل مارسيل « ان هذا الكتاب لا يمكن ان يستغله أي حزب للدعاية » وهذا اثمن ما فيه . ويتضح ذلك عندما نعلم ان احد ابطال القصة يقول ان آخر ما وصل اليه الانسان في الحضارة الأوروبية هو أن يختار بين احد سجنين – السجن الروسي او السجن الأمريكي .

ولا يعتبر المؤلف الحرب بين الكتلتين الشرقية والغربية حرباً بين مذهبين بل هي حرب داخلية في نظام واحد ، ذلك ان روسيا – بعد الثورة الاشتراكية – ليست الا الفرع الأكثر تقدماً من فروع الثورة الغربية في الصناعة الآلية – ومستوى الروس والأمريكان لدى الكاتب – في انهم اهدروا قيمة الفرد ولم يعودوا يتعاملون الا مع مجموعات بطريقة آلية .

والواقع أننا لا يمكن ان نعتبر الكاتب من ناحية امتداداً لآراء الفيلسوف الألماني اشبنجلر الذي اعلن انحلال الحضارة الغربية ، كما اعلن عن خلاص يأتي من الشرق (وهو غير روسيا) . ومن ناحية أخرى فاننا يمكن أن نضعه مع الوجوديين الذين يعطون الفرد قيمة اكثر مما للمجموع . ولعله لهذ السبب كان جابريل مارسيل هو صاحب المقدمة في الترجمة الفرنسية .

ومع ان الكاتب متشائم الى درجة مفزعة ، ومع انه لم يستطع أن يقف موقفاً جدلياً امام التفاعل الموجود بين الفرد والجماعة فيعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، الا أنه على كل مثقف ان يقرأ هذا الكتاب – فانا لا الخصه ولكني اثير الأهتمام به فقط لأنه في اكثر من خمسمائة صفحة في كل من الترجمتين الفرنسية والعربية – فهو يثير مجموعة من القضايا والأسئلة على كل منا ان يجيب عليها ، لاسيما في هذا الوقت الذي يعلن فيه الاتحاد السوفييتي نقمته على تصرفات ستالين الديكتاتورية ، والذي يظهر فيه في امريكا شخص مثل مكارثي يحجر على حريات الناس ، ويمنع فيه كاتب مسرحي عظيم مثل آرثر ميللر او مغن عبقري مثل بول روبسون من حرية السفر الى الخارج .

ان قراءة هذا الكتاب امر ضروري في الوقت الذي تبحث فيه مصر والشرق العربي عن شخصية لهما بين مختلف التيارات .

– الساعة الخامسة والعشرون هي اللحظة التي تكون فيها كل محاولة للأنقاذ عديمة الجدوى ، بل إن قيام مسيح جديد يخلص العالم لن يجدى فيها. انها ليست الساعة الأخيرة ، بل هي ساعة بعد الساعة الأخيرة . ساعة المجتمع الغربي . انها الساعة الحاضرة ... الساعة الدقيقة المضبوطة .

كانت هذه كلمات تريان بن القس كوروجا راعي الكنيسة الأرثوذكسية في قرية فانتانا برومانيا. وتريان هو احد اشخاص قصة «الساعة الخامسة والعشرون». وظيفته مؤلف روائي . وهكذا استطاع المؤلف الحقيقي ان يختفي وراء شخصية تريان وان يعبر به عن آرائه .

وبعد تناول العشاء سأل القس كوروجا ابنه عن مشاريعه الأدبية فقال : « إن حدثاً خطيراً قد وقع حولنا ، انني اشعر بهذا الحدث الهائل شعوراً لا يضاهيه الا احساس الجرذان الذي يدعوها الى هجر مركب على وشك الغرق . »

وكان جورج داميان – وكيل النيابة – جالساً يستمع الى هذا الحديث فسأل قائلا : « وما هو ذلك الخطر الذي يتهددنا ؟ »

أجاب تريان كوروجا – انه الآلات ، هذا الرفيق الغني ، هذا الخادم الذي يقدم لنا يومياً الف خدمة. ولا شك أن هناك الآن عشرات المليارات من هؤلاء العبيد الفنيين وحوالي مليارين من البشر . ونحن الآن مرغمون على معرفة عادات هؤلاء العبيد وقوانينهم لنستطيع استخدامهم. وقد جرت العادة أنه اذا كان المحتل اقل عدداً من الأمة التي يحتلها ، فانه مرغم على اعتناق عادات تلك الأمة وتعلم لغتها بسبب المنفعة . وهذا ما نحن مرغمون عليه امام الآلات رغم اننا المحتلون ... وهكذا فاننا سنتخلى يوماً عن صفاتنا الإنسانية وقوانيننا الخاصة تدريجياً ونعتنق اسلوب الحياة المطبق على عبيدنا الفنيين ، وستكون دلالة التخلى عن الانسانية احتقار الكائن البشري . ان الرجال سيحاكمون آلياً ويقتلون آلياً . لن يكون للمرء الحق في الحياة بل سيعامل كأنه مكبس او آلة . هل رأيت في حياتك مكبساً يعيش حياة خاصة ؟ .

وسيصبح الرجل متقولا خلال سنين طويلة في المجتمع الآلي ، لكنه لن يموت في الأغلال . ان المجتمع الآلي يستطيع ابداع الرفاهية . لكنه لا يستطيع خلق الفكر . وبدون الفكر لا توجد عبقرية . وان مجتمعنا محروماً من العباقرة مقضي عليه بالفناء .

ان هذا الانهيار في المجتمع الآلي سيعقبه اعتراف بالمواهب الانسانية والعقلية . وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق بلا شك ، من آسيا . لكن ليس من روسيا . ان الروس قد انحنوا خاضعين امام نور الغرب الكهربائي فلن يبلغوا تلك المرحلة .

لقد قمت مرة بجولة بحرية في جوف غواصة ، ومكثت تحت الماء حوالي الف ساعة . إن في الغواصات جهازاً خاصاً ينبيء بالوقت المعين اللازم لتجديد الهواء . اما من قبل فان الغواصات لم تكن مزودة بهذا الجهاز ، لذلك كان البحارة يصحبون معهم عدداً من الأرانب البيضاء الى جوف الغواصة ، فاذا تسمم الهواء ماتت الأرانب فيعرف البحارة انذاك انهم خمس ساعات يحيون فيها قبل ان يسقطوا بدورهم فريسة للاختناق ، اما بالصعود الى سطح الماء باذلين جهد اليائسين ، واما بالبقاء في الأعماق والموت مع البحارة كلهم . وقد جرت العادة اثر اتخاذ القرار الثاني ، ان يقتل البحارة بعضهم بعضا بطلقات المسدسات ،

انها موهبة نملكها نحن – انا والأرانب البيضاء – فنشعر بدنو الخطر قبل أن يشعر به البشر بست ساعات .. ان رجال الغواصة يناضلون ويقاومون الجو المسموم ، انهم كانوا يعيشون ست ساعات بعد موت الأرانب البيضاء ، لكني اعرف أن كل شيء قد انتهى .

ان المجتمع الحاضر يملك من الوسائل للأحتفاظ بالرقيق ما لم يملكه اليونان من قبل . انني لا افكر فقط في الرشاشات وحواجز الأسلاك الشائكة التي يمر فيها تيار كهربائي صاعق ، بل افكر في الأساليب التعسفية التي سوف يعمد اليها النظام البوروقراطي للرقابة على الكائن الحي . واقصد بطاقات التموين واذن رجال الشرطة للحصول على سرير في الفندق ، او ركوب السيارة او التنزه في الشارع او ابدال المسكن . ان اليونان والمصريين ما كانوا ليكبلوا ايدي عبيدهم وارجلهم بالحديد لو كانت لديهم الوسائل التي يملكها مجتمعنا المتمدين .

ان روايتي المقبلة ستكون كتاباً حقيقياً لا يمت الى الادب الا من حيث الأسلوب فقط . اما الأشخاص ، فانني سأنتقيهم من الحياة الحقيقية . سأنتقي بين مليارين من البشر عشرة اعرفهم ، سأعنى بايراد حوادث لا يمكن للمخلوق البشري ان ينجو من الوقوع في مثلها . سأنتقي بين مليارين من البشر عشرة اعرفهم اكثر من سواهم ، اسرة كاملة – اسرتي مثلا . ابي وامي وانا واخت وخدم ابي وبعض الأصدقاء والجيران .

وسأله جورج داميان – وكيل النيابة – قائلا : « اتعتقد انني ساحيا فترات مفجعة ؟ أنت تعرف انني اعيش حياة برجوازية ، لا يمكن ان يعنى بهـا الجمهور . »

– يا صديقي العجوز ، ان معظم الناس على هذه الأرض ليسوا مغامرين ، مع ذلك فانهم جميعاً يمرون احياناً في مغامرات ، يعجز الكتاب العاطفيون عن تخيلها .

* * *

وكان ايوهان مورتيز هو احد خدم القس كوروجا ، وكانت زوجته سوزانا على جانب عظيم من الجمال ، حتى ان رئيس شرطة القرية راودها عن نفسها ولكن عبثاً . واخيراً سنحت له الفرصة ، فقد تلقى امراً باعتقال اليهود والمشبوهين في القرية لارسالهم الى معسكرات العمل – وكان ذلك في بدء نشوب الحرب العالمية الثانية – فاستدعى رئيس الشرطة ايوهان مورتيز وارسله باعتباره مشبوهاً ومعه اليهودي ماركو كولدنبرج ابن صاحب الحانة . غير ان اسم ايوهان مورتيز سجل خطأ مع اليهود فاعتبر يهودياً . وحاول عبثاً ان يثبت بعد ذلك أنه مسيحي ارثوذكسي ، وارغمت زوجته سوزانا على تطليقه والا صادرت السلطات منزلها باعتبارها زوجة يهودي . وابلغ مورتيز هذا النبأ بغير ان يحاط علماً بظروفه مما احزنه حزناً شديداً ، ثم نقل للعمل على الحدود الرومانية الهنغارية ، فلم تكن امامه وسيلة الا الفرار الى هنغاريا مع بعض اليهود الذين كان من بينهم طبيب يدعى ايرا موفيس .

وفي هنغاريا استطاع الطبيب ايرا موفيس واليهود الآخرون ان يهاجروا الى امريكا بينما قبض على ايوهان مورتيز بتهمة التجسس ، وحاول عبثاً أن يشرح قصته للسلطات الهنغارية بل انهم عذبوه عذاباً اليماً املا في الحصول على معلومات منه ، ولما يئسوا اودعوه احد معسكرات الاعتقال .

وحدث ان طلب الريخ الألماني خمسين الف عامل هنغاري لنقص في ايدي الالمان العاملة ، وكان هذا الطلب شبه امر موجه الى هنغاريا ، فاحتالت الحكومة الهنغارية على هذا الطلب الذي لا تستطيع رفضه ، فلم ترسل ابناء وطنها ليعملوا شبه مسخرين في المانيا النازية ، بل لجأت الى المعتقلين تنزع عنهم ما يثبت جنسيتهم وارسلتهم – ومن بينهم ايوهان مورتيز – باعتبارهم عمالا هنغاريين .

وعندما وصل القطار الذي يقل هؤلاء العمال الهنغاريين المزعومين الى حدود المانيا وجد ايوهان مورتيز ان حافلته قد كتب عليها بالطباشير هذه العبارة « العمال الهنغاريون يحيون زملاءهم عمال الريخ الالماني الأكبر » وقرأ على الحافلة التالية « العمال الهنغاريون يعملون لنصرة المحور » .

ولبث القطار في الحقول الى المساء . وعند مغيب الشمس انتشر الحراس في الحقول وراحوا يقطفون ازهاراً . ولم ير مورتيز من قبل جنوداً مسلحين يقطفون الأزهار تحت امرة ضابط يشاركهم مهمتهم . فلما فرغوا عادوا وفي يد كل منهم باقة جميلة ثم زينوا العربات بالأوراق الخضراء والحشائش واكاليل الزهور والأغصان وكأنهم يقيمون حفلة زفاف .

وفي المانيا اشتغل مورتيز عاملا في مصنع للأزرار . وكان عمله ان يلتقط الصناديق التي تأتيه بطريقة آلية على قضيب حديدي ليضعها على عربة قريبة منه . وعندما تمتلىء العربة تمضى من تلقاء نفسها لتترك مكاناً لعربة اخرى فارغة تأتي بشكل آلي ، ولا يستطيع العامل ان يتوقف عن العمل لحظة والا تكدست الصناديق امامه واضطرب العمل واتضح اهماله وكسله .

قال له الموظف وهو يشرح له عمله :

– ان الانسان الآلي لا يمكنه ان يتبع رغبة الانسان . فعليك اذن ان تساير رغباته ، وتوازن حركاتك مع حركاته . ان هذا طبيعي جداً لأنه هو العامل الكامل . اما انت فانك لست كاملا . لا يستطيع الانسان ، اي انسان ، ان يكون عاملا كاملا . اما الآلات فانها وحدها تستطيع ان تكون كذلك . ينبغي ان تمعن النظر فيها لتتعلم كيفية العمل . هل فهمت ؟ ان الآلات تعلمك الترتيب والنظام والكمال . فاذا حاكيتها غدوت عاملا من الدرجة الأولى .

وفي المصنع اصبح ايوهان مورتيز صديقاً لأسير فرنسي اسمه جوزيف . ولم يستمر عمل مورتيز في هذا المصنع ، فقد طلبوه ليعمل مترجماً للغات البلغارية في هيئة الاركان العامة والمؤسسة القومية للدراسات العنصرية . وهناك اكتشف احد علماء الأجناس الألمان ان ايوهان مورتيز من عنصر آري صميم . وكان دليله على ذلك انفه وجبهته وعينيه وذقنه ... وهكذا اصبح مورتيز

جندياً في الجيش الالماني يحرس صديقه في الأسر جوزيف واربعة آخرين .

وفي ذلك الوقت نفسه كان رئيس شرطة قرية فانتانا في رومانيا قد تلقى برقية عن فرار ايوهان مورتيز من معسكر اعتقاله على الحدود الرومانية الهنغارية ، والمطلوب منه البحث عنه عله يكون قد عاد الى قريته . فاستدعى رئيس الشرطة أم مورتيز واراها المستند الرسمي الصادر من السلطات والتي تؤكد ان ابنها يهودي . فصرخت امه قائلة : « لقد انجبت ايوهان مع زوجي وليس مع السلطات . أنا اعرف انه ليس يهودياً . »

ولكن رئيس الشرطة رد قائلا : « ان وزارة الداخلية تؤكد حرفياً في هذه النشرة ان مورتيز يهودي . »

فردت الأم قائلة : « الحس هذه النشرة انت ورؤساؤك . »

اما ايوهان مورتيز فتزوج من المانية وانجب منها طفلا . وكانت انباء انتصار الحلفاء تتزايد يوماً عن يوم ، وبدأ الأسير الفرنسي جوزيف يغري مورتيز حارسه وزميله في الأسر سابقاً على الهروب معاً ، لأن هذا من شأنه الا يجعله من مجرمي الحرب . وعندما اعلن مورتيز لزوجته الألمانية احتمال انهزام المانيا نفت ذلك بشدة وقالت انها في هذه الحالة ستقتل نفسها وولدها . اما مورتيز فهرب مع اسرى آملا في الرجوع مع القوات الحليفة لأنقاذ اسرته قبل ان تنفذ زوجته تهديداتها .

اما تريان بن القس كوروجا فكان قد عين في احدى الوظائف الدبلوماسية خارج رومانيا ، ومن هناك كتب الى والده يقول :

« ان روايتي الجديدة تتقدم في طريق نهايتها . لقد وصلت الى الفصل الرابع ، الى الساعة الثالثة بعد موت الأرانب البيضاء . ان العبيد الآليين يدمرون كل شيء في طريقهم والأنوار تطفأ بعضها في اثر بعض . والرجال هائمون في ظلمة قريبة من ظلمة الموت . »

وكان تاريخ هذا الخطاب هو ٢٠ اغسطس عام ١٩٤٤ ، وكانت هذه هي نهاية الفصل الثالث من روايتنا .

واحتل الروس رومانيا ، وانتوى رجال قرية فانتانا مقاومة الغزو الروسي بقوة السلاح ، فعارضهم القس كوروجا ولكنهم اصروا فباركهم القس ، ثم غادروا القرية ولجأوا الى الغابات وعندما سيطر الجيش الأحمر على رومانيا عينوا ماركو جولند نبرج — وهو اليهودي الذي اعتقله رئيس شرطة فانتانا مع ايوهان مورتيز — رئيساً لمحكمة الشعب في القرية بعد ان حرروه من الأسر . وكان اول ما عمله هو ان حكم على القس بالاعدام لأنه بارك عصابات الفاشية . ونفذ هو بنفسه الحكم في القس وفي آخرين رمياً بالرصاص ، وكان من بينهم جورج داميان وكيل النيابة . لكن القس لم يمت فانقذته ام ايوهان مورتيز وزوجته الأولى سوزانا ، وسلموه الى قافلة المانية كانت تتقهقر . وفي الصباح حكم ماركو على ام ايوهان بالأعدام لأنها انقذت القس واعطته للألمان . بينما هربت سوزانا مع ولديها .

اما ايوهان مورتيز فكان قد وصل الى منطقة الاحتلال الأمريكية حيث غومل اولا بتكريم في مؤسسة الأونرا الأمريكية في مدينة ديمار ، وذلك لمساعدته خمسة من الأسرى على الفرار من النازي ، لكنه ما لبث ان استدعي ذات يوم وسأله مدير المؤسسة الأمريكي بصوت قاس :

— الست رومانياً ؟ ان الرومانيين اعداء الأمم المتحدة ، وانت روماني فانت عدو لنا بصورة آلية ولا تستطيع مؤسسة الأونرا ان تؤدي وتطعم رعايا البلاد العدوة . يجب ان تخلي غرفتك .

وفي الوقت نفسه كان تريان قد نجا هو ايضا الى منطقة الأحتلال الأمريكي بالمانيا بعد ان سجنه الالمان مع زوجته سنة كاملة . وطلب التصريح له بالخروج من المانيا . ولكن الحاكم الأمريكي أفهمه ان رومانيا من الدول الأعداء .

— لكن رومانيا تقاتل مع الحلفاء ضد المانيا منذ اكثر من عشرة شهور ، وانت تعرف ذلك كما اعرفه ، لقد قتل ثمانون الف روماني في سبيل قضية الحلفاء ، فهل تعتبرون ذلك الذين يقاتلون في صفوفكم اعداءكم ؟ .

ولكن ميجر براون كرر قائلا : « ان رومانيا دولة عدوة ... » واخرج من مكتبه ورقة وراح يقرأها بصوت مرتفع . « البلاد العدوة رومانيا ، هنغاريا ، فنلندا ، المانيا ، اليابان ، ايطاليا ، ان هذا واضح اليس كذلك ؟ انكم معشر الرومانيين اعداء الولايات المتحدة . »

وبعد اسبوع قبض عليهما واودعا معسكرات الأعتقال .

وسألت نورا زوجة تريان — بيأس — : «انني لا اعرف سبب القبض ولا يمكن ان يكون هناك سبب . »

اجابها تريان : « هناك سبب ولا شك ، ولكنه سبب سخيف شاذ من الناحية الأنسانية ومعترف بعدالته من وجهة نظر الآلة . ان الغرب ينظر الى الأنسان من الوجهة الآلية . أما الأنسان المخلوق من لحم وعظم ، القادر على الشعور والفرح فانه غير موجود ... وعندما يقبض على شخص او يضل فانه لا يقبض على شيء حي بل على رقم او شعار . ولا يمكن لأحد ان يطلب الى آلة معاملة الأنسان معاملة تنطبق على ميزاته الشخصية . »

واقترب الروس من المدينة ليحتلوها ، فحسب تريان وزوجته ان الأمريكيين سيسلمونهما الى الروس ، فقرر تريان ان الأنتحار خير من الوقوع في يد الروس .

ولكن الاميركيين لم يسلموا تريان وزوجته الى الروس بل نقلوهما الى معسكراتهم في منطقتهم المحتلة من المانيا . وهناك تقابل تريان مع ايوهان مورتيز . وبدا تريان يشرح آراءه لايوهان قائلا :

— ان حيواناً جديداً ظهر على سطح الأرض في الآونة الاخيرة . هذه الحيوان الجديد اسمه المواطنون . انهم لا يعيشون في الغابات ولا في الادغال ولكن في المكاتب . ومع ذلك فانهم اشد قسوة ووحشية من الحيوانات المتوحشة في الادغال . لقد ولدوا من اتحاد الرجل مع الالآت . انه نوع جديد من ابناء السفاح . وهم اقوى الأصول والأجناس الموجودة الآن على سطح الأرض . ان وجههم يشبه وجه الرجال ، بل ان المرء غالباً ما يخلط بينهم ولكن لا يلبث المرء حتى يدرك ، بعد حين ، انهم لا يتصرفون كما يتصرف الرجال بل تصرف الالآت . ان لهم مقاييس واجهزة تشبه الساعات ، بدلا من القلوب وادمغتهم نوع من الآلة ، فهم بين الآلة والأنسان ، ليسوا من هؤلاء ولا من ذاك . ان لهم رغبات الوحوش الضارية مع انهم ليسوا وحوشاً ضارية . بل انهم مواطنون ... انهم سلالة غريبة اكتسحت الأرض ... انهم عديمو الشعور ، لا يعرفون الكراهية ولا الانتقام . والشفقة غريبة عنهم . انهم يعملون آلياً ويجهلون ما هو غير مسجل في البرامج .

ونقل المعتقلون الى معسكر آخر ، وكان النقل عن طريق القطار . وقال

مجموعات « الآداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الثلاث الاولى من « الآداب » تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٤٥ ل.ل	٥٠ ل.ل
〃 〃 الثانية	٢٥ 〃 〃	٣٠ 〃 〃
〃 〃 الثالثة	٢٥ 〃 〃	٣٠ 〃 〃

تريان يحدث مورتيزا : «قطارنا يشبه القافلة التي كانت تتسلق الجلجلة حيث صلب المسيح . والفرق ان قافلتنا آلية . لقد صعد يسوع سيراً على قدميه بين مجرمين حقيقيين . هل تعرف ان يسوع قد صلب بين مجرمين ؟ .

–كلا لا اعرف ذلك .

– من عادة القضاة اذا ارادوا معاقبة بريء ان يحيطوه بمجرمين . ان الحيلة معروفة منذ القدم . ان سببها هو جذب انتباه الجماهير الى ناحية اخرى ، خلال تنفيذ احكام الإعدام ... غير ان الخدعة صبيانية . فبعد تنفيذ احكام الإعدام لن يذكر الجمهور الا يسوعاً وحده . هذه هي الطريقة التي اتبعت كل العصور وهذه نتيجتها ، وهذا ما يقع اليوم حتى ولو رفعنا على الصليب بشكل آلي .

وطالت ايام الإعتقال فارسل مورتيز خطاباً الى سلطات الاحتلال الأمريكي يقول فيه : « انني انسان ، فاذا كنت لم اسيء الى احد ، فلا يحق لأحد ان يعذبني . ان حياتي وظلي ملك لي . ولا حق لكم – مهما بلغت مصفحاتكم ورشاشاتكم وطائراتكم ومعسكراتكم ونقودكم التي تملكونها – ان تمسوا حياتي وظلي . انني لم اشته طيلة عمري الا شيئاً قليلا : ان استطيع العمل ، واجد المكان الذي آوى اليه مع زوجتي واولادي وان يكون لدي ما آكله . فهل من اجل هذه الرغبة تسجنونني ؟

وبعد ان سرد قصة عذابه من بلد الى آخر وكيف كانوا يجعلون اسمه يهودياً في بلد وآرياً في بلد آخر قال – هل تريدون اذن تبديل اسمي ؟ ابدلوه . انني اعرف الآن ان بني الانسان لم يعد يحق لهم حمل الأسماء التي تطلق عليهم ساعة العماد . لكنني اريد ان ابلغكم الآن شيئاً ... انني لن استطيع بعد الآن صبراً . اريد ان اعرف السبب الذي من اجله اسجن واعذب .

وبعد ثلاثة ايام من هذا الخطاب استدعي ايوهان مورتيز ليسألوه اذا ما كان يكتب مورتيز بحرف التاء ام حرف الزاي ، وكان هذا هو كل ما حققوا فيه معه .

وفي هذه الاثناء وصل الى مورتيز خطاب ينبئه أن زوجته الألمانية احرقت نفسها وولدها الذي انجبته من ايوهان .

اما تريان فكان يكتب الشكوى تلو الشكوى وهو يردد قوله « ان الرجال الذين يسجنونني هنا لا يمقتونني ، ولا يريدون معاقبتي ، ولا يطلبون موتي . انهم يريدون فقط انقاذ العالم . »

واستدعاه الضابط الأمريكي اخيراً ليقول له .. « انني مقتنع بانك لست مذنباً وهذه هي المرة الرابعة التي اطلب فيها الى السلطات اطلاق سراحك ... لكن لم اتلق جواباً . ان اوامر اخلاء السبيل لا يمكن ان تمنح بصورة فردية . ان اطلاق السراح ، لا يمكن ان يقع الا لمجموعات من الأشخاص . قد يبدو اسلوبنا جافاً آلياً وحسابياً لكنه صحيح . »

– اذن فالاستجواب الذي تعرضت له الآن لا يهمك ؟

– بل يهمنا نحن ان نعرف عن الشخص اسمه الكامل الصحيح ، تاريخ الولادة ، مكانها ، مهنته ... الخ لنسجل تلك المعلومات على بطاقات خاصة وندونها في احصاءاتنا ، ثم نقسم المساجين الى فئات ونوزع كل شخص على الفئة التي ينتمي اليها .

– اولا تجدون ان الغاء الانسان ومعاملته كجزء من فئة عمل غير انساني ؟

بل انه أسلوب عملي سريع علاوة على انه عادل . ان العدالة تسير فوق مناهج العلوم الرياضية والفيزيائية . اي بحسب الأساليب الأكثر دقة . ان الشعراء وحدهم وعلماء اللاهوت يستنكرون هذه الوسائل والأساليب . لكن المجتمع المتمدين قد نفع المبادئ اللاهوتية والشعر ، اننا الآن نجتاز حقبة عملية رياضية سليمة ولا يمكن العودة الى الوراء لأسباب عاطفية .

وفكر ايوهان مورتيز في الفرار الى بيته في رومانيا ولكن تريان حذره لئلا يقتله الحرس البولوني الذي يرتدي ملابس امريكية .

– فاذا اخطأك البولنديون فسيقتلك الأمريكان او الألمان قبل ان تصل الى رومانيا . انك تلاقي في طريقك جنوداً نمساويين وتشكيين وفرنسيين وهنغاريين ، فلا تصل ابداً الى رومانيا . سوف ينالونك في الطريق . فاذا تفاديت بنادق امة ونجوت من جنودها قتلتك الأمة التي تليها . ان بينك وبين بيتك ، بيتك وبين اسرتك يا عزيزي مورتيز ، تقوم امم العالم. امم مسلحة تريد قتلك ... ان هذا الجيش الدولي العالمي يقوم بين كل رجل وحياته الشخصية الخاصة . ان الرجل الآن لم يعد يسمح له ان يعيش حياته الخاصة . انه يقتل رمياً بالرصاص اذا حاول ذلك . ان المصفحات والرشاشات والأنوار الكاشفة والأسلاك الشائكة قد صنعت من اجل هذا الهدف .

وفجأة التقى ايوهان مورتيز بصديقه القديم الدكتور ايراموفيس–وهو اليهودي الذي فر معه من رومانيا – وكان يدخل الآن في زي ضابط امريكي . فظن مورتيز ان ساعة الحرية قد دنت . وقال له الطبيب :

– انني الآن في مركز قوي ، وانت تجتاز لحظات رديئة من حياتك . ماذا تحتاج ؟ اتريد لفافات او غذاء او كساء ؟ اذكر لي ما تريد .

– بل اريد الخروج من هنا . اريد العودة الى بلدي ، الى زوجتي واولادي.

– لا تطلب المستحيل . لقد ظللت قروياً شديد السذاجة والجمود . انك تعتقد بان اي ضابط يستطيع اطلاق سجين ما ، لأنه يعتقد انه غير مذنب . اليس كذلك ؟ لو ان الأمر كذلك لأخلى هذا المعسكر بين عشية وضحاها . ان كل نازي يستطيع ايجاد ادلة على براءته . ان اطلاق السراح لا يتحقق الا بناء على امر الأركان العامة في فرانكفورت ومنه ترسل الأوراق الى واشنطن فيحول القرار منها الى ويسبادن ، فتشكل لجنة خاصة في اسلجن وترسله الى برلين . وبذلك يرسل امر اطلاق السراح الى برلين ، ويرسل في ذات الوقت الى هيد لبرج . وحين يصل الأمر الى هيدلبرج ترفع البطاقة من المحفوظات في مئات المكاتب وعندئذ فقط يطلق السراح . لكن كل هذه المعاملات شديدة التعقيد. انها آلة تعمل اوتوماتيكياً .

ان اسمك مسجل في العالم باسره في كل مكان ، في المكتب الاتحادي للمعلومات في امريكا ، وفي القيادة الحليفة العليا بباريس ، وفي لجنة الرقابة في برلين ، وفي كل المعسكرات والسجون وفي مكاتب البوليس . بوليس الجرائم ، السياسية ، الشرطة العسكرية ، شرطة المشبوهين ، شرطة الطوارئ ان كل حركاتك حتى اكثرها تفاهة – ولو لم يكن الا نقلك من معسكر الى آخر – تحدث حركة وتبديلا في بطاقتك ، بين مختلف دوائر المحفوظات فهل كنت تعرف ذلك ؟

لقد قمنا باعتقالات وقائية بحسب الأصناف والطبقات . فاذا احتجنا الى المذنب او الى مجرم حرب مثلا ، فانه يكون تحت يدنا بدلا من البحث عنه في كل مكان ... اننا لا نتكلف الا عناء الضغط على زر ، يتعلق بالحروف الأولى من الأسم ، وقبل ان نعد ثلاثة ، تكون بطاقة الشخص المطلوب بين ايدينا مع صورته وكل المعلومات المتعلقة به . طوله ، وزنه ، لون شعره ، تاريخ ولادته ومكان الولادة ، عدد اسنانه ... وعندئذ يكفي ان نرفع السماعة – لنبلغ بواسطة الراديو – المعسكر او السجن الذي يكون فيه رجلنا ، فلا تنقضي ساعات معدودة الا ويكون الشخص بلحمه ودمه ماثلا امام محكمة نورمبرغ الدولية . ان هذا العمل مدهش . انه نتيجة التقدم الفني الآلي . فكيف تريدهم ان يطلقوا سراحك ؟ ان ذلك يعادل الجنون . انك تشبه خيطاً انتظ

في نول للحياكة . ومنذ ان ادخل في مكانه يتعذر استخراجه وعندئذ ينبغي الانتظار حتى يخرج من تلقاء نفسه منسوجاً مع الخيوط الأخرى .»

ان كونك مجرماً او بريئاً مسألة شخصية يمكن ان تهتم بها زوجتك او أن يهتم بها جيرانك والفلاحون الآخرون في قريتك — ان هؤلاء وحدهم يهتمون بمسألتك الشخصية . اما الدول الراقية فانها تنظر الى الأمور نظرة اجمالية . ان رئيس الولايات المتحدة نفسه لا يستطيع اطلاق سراحك . ينبغي ان تنتظر حلول دورك بهدوء . هلا تريد سيجارة ؟

ومد مورتيز يده ليأخذ سيجارة ، لكن العلبة كانت فارغة . وراح الطبيب يبحث عبثاً عن علبة اخرى في جيبه فقال له : « ساقدم لك سيجارة في المرة القادمة . »

اما تريان فلجأ الى طريقة اخرى عله يخرج ، لجأ الى الاضراب عن الطعام حتى بلغ به الضعف مبلغاً كبيراً وانتابه الغثيان، وعندما زاره الطبيب حسبه مجنوناً وحاول. تريان أن ينفي عن نفسه تهمة الجنون امام الضابط الطبيب قائلا لـه :

— لست مجنوناً ايها الملازم ، فقط اشعر بغثيان رهيب . لا شك انه لا يمكنك ان تشعر بالغثيان لأن المرء اذا بدا مغمض العينين محكماً سد انفه فانه لا يتعرض لشيء .. هناك عمال يتناولون افطارهم وغذاءهم قرب فتحات المجاري العامة او حفر المراحيض،ولكن ذلك لا يؤثر فيهم لأنهم ألفوه ... ان الألمان كانوا يحرقون جثث المساجين في معسكرات الاعتقال ، لكنهم ما ان يغلقوا باب الأتون حتى يمضوا لتناول طعامهم ببشر وغبطة دون أن يشعروا باي غثيان . يوجد هنا رجال صنعوا فراشاً من شعور النساء اللائي قتلوهن في معسكرات الاعتقال واستعملوا ذلك الفراش للنوم عليه مع عشيقاتهم ومطارحتهن الهوى وانجبت لهم نساؤهن ابناء بعد نومهم معهن على ذلك الفراش بعد ان مارسوا تلك الغرائز دون ان يشعروا باي تقزز او اشمئزاز ... وانتم ايضاً لا تخافون الغثيان ولا تشعرون به مهما عملتم . اني واثق انكم لا تتعرضون لأي خطر ، لأن الغثيان — وارجو ان تصدقني — وبال جسيم .

ومن شرفة غرفته رأى تريان الحرس يفتشون المعتقلين بحثاً عن محظورات قد تكون في حوزتهم . فتشوا اولا ملا بسهم ، ثم تحت آباطهم ومؤخراتهم ، فقال تريان معلقاً :

— ان التفتيش لم ينته بعد ، ولن ينتهي بسرعة لأنه لم يبدأ بعد . لقد فتشتم

بادئ الأمر عن الذهب في الحقائب والدور والجيوب وبين الملابس وفي الأحذية والثنيات وفي السراويل الداخلية. والآن تبحثون عنه في أفواه الرجال وتحت آباطهم وفي مؤخراتهم – انكم تبحثون في كل مكان . على الرجال ان يقفوا عراة امامكم . ومع ذلك فانها ليست الا البداية. سوف تنزعون الجلود غداً بحثاً عن الذهب تحتها ، ثم تنزعون العضلات عن العظام بحثاً عن الذهب، وبعدئذ تحطمون العظام لتنظروا اذا لم يكن فيها شيء من الذهب ، واخيراً تضغطون ادمغة الرجال وتفتشون في امعائهم ومصارينهم وتمزقونهم اربا ، بحثاً عن الذهب وقطع الذهب وخواتم الذهب . ستحطمون القلوب وتجزئونها بحثاً عن الذهب . الذهب الذهب ... اننا اليوم في البداية . انكم لا زلتم تبحثون فوق الجلد . لكن الجلد سينزع والتفتيش سيستمر .

وكأنما كان تريان يتنبأ – والأسلوب هنا هو اسلوب النبوة – بما فعله الأمريكان في ايران وفي جواتيمالا ، وما يفعله الأنجليز في كينيا وقبرص ، وما يفعله الفرنسيون في المغرب العربي .

ونقلوا تريان الى مستشفى المجاذيب حيث اضطر – تحت الضغط والارهاب ان يعدل عن اضرابه . لكنه عندما اعيد الى المعتقل سار نحو الأسلاك الشائكة حيث المنطقة المحظورة وهناك اطلق الحراس عليه النار فوضع لحياته حداً . وهكذا اصبحت زوجته ارملة .

واخيراً اخلي سبيل ايوهان مورتيز ، والتقى بزوجته سوزانا وولديه منها وولد ثالث جاء نتيجة استباحة الجنود الروس لها . واخلي سبيل نورا ارملة تريان آلياً ، كما قبضوا عليها من قبل آلياً . ولم يكن لديها مال ولا اثواب ولا حلي ولا حتى خاتم زواجها . فمكثت في المانيا وعملت كامينة سر مع الملازم الأمريكي لويس . وعرض عليها الملازم الأمريكي الزواج ولكنها رفضت قائلة :

– انك عاجز تماماً عن اظهار اية عاطفة. ولست وحدك العاجز ، بل ان اي رجل في حضارتك لا يستطيع انماء عاطفته في نفسه . ان الحب ، تلك العاطفة البليغة ، لا يمكن ان تكون الا في مجتمع يؤمن ان الكائن البشري فريد لا يمكن استبداله . والمجتمع الذي تنتمي اليه يؤمن بشدة ان اي رجل يمكن استبداله برجل آخر ، وان اي امرأة يمكن استبدالها بامرأة اخرى . وبمثل هذا الاعتقاد لا يمكنكم ان تحبوا .

ان العشاق في مجتمعي يؤمنون انهم اذا لم يوفقوا في كسب عطف المرأة المحبوسة فلن يستطيعوا استبدالها بسواها بين كل نساء العالم ، لهذا فانهم كثيراً ما يقتتلون في سبيلها. ان الرجل الذي يحبني حقاً ، يشعرني بانني المرأة الوحيدة التي تستطيع اسعاده ، المخلوقة الوحيدة ... فهل انت قادر يا سيد لويس على تقديم مثل هذا التوكيد ؟ انك واثق انني اذا رفضت ، فانك واجد امرأة اخرى تقبل الزواج بك واذا رفضت هي الأخرى فانك واجد ثالثة ورابعة – اليس كذلك ؟

أجاب – هذا صحيح ولكني سآسف اذا رفضت الزواج بي .

– اذن يجدر بنا يا سيد لويس أن نتابع عمل مكتبنا المقدس .

* * *

ان الساعة الخامسة والعشرين هي اول الطريق الذي يؤدي في النهاية الى عالم الدوس هكسلي الطريف. فقد تخيل الدوس هكسلي عالماً فيه كل شيء آلي ومرسوم تسوده الرموز وقوانين الرياضة وتكاد تنعدم فيه الصفات الانسانية وهو عالم – على عكس الساعة الخامسة والعشرين – معدوم الصلة بعالمنا . انه نهاية الطريق . فالساعة الخامسة والعشرون هي الساعة الحاضرة . أما « العالم الطريف » ، فهو الساعة المقبلة .

وليس غريباً ان يكون فيلسوف وجودي آخر – هو نيقولا برديف – هو صاحب مقدمة « العالم الطريف » وفيها يتساءل هذا الفيلسوف عن الوسيلة التي تحول دون تحقيق امثال هذه المدن الفاضلة ، حتى يعيش الانسان في مجتمع اقل « كمالا » لكنه اكثر حرية ، اذا كان ثمة تنافس بين الكمال والحرية .

ان الساعة الخامسة والعشرين تجمع في سطورها بين النقد الساخر الذي وجهه شارلي شابلن في افلامه الى النظام الآلي في المجتمع الرأسمالي وبين النقد المر الذي يوجه الى ديكتاتورية ستالين ووزير داخليته بريا وامثال ستالين وبريا في كل نظام شيوعي .

وعيب الساعة الخامسة والعشرين انها لا تعبر الا عن هذا الجانب النقدي ، عن اليأس ، وعن امل غامض سحري ، في خلاص يأتي من الشرق . انها لا تشترك الا في الهدم ولا تشترك في طريق البناء والخلاص. ومن هنا فهي مأساة لا بطولة فيها لأنه لا كفاح فيها ، تشترك في ذلك مع كل المراثي التي رثت الحضارة الأوروبية وفي مقدمتها مراثي ت.س.اليوت ، وانه لرثاء بليغ ، ولكنه ليس الا رثاء .

حقاً ليس هناك من معدي بان اتوهم بانني حر في عقيدتي ورأيي (رغم وسائل الدعاية الحديثة الضخمة التي تفرض علي) في مجتمع تمنعني فيه حالتي المادية من ان اكون حراً في ان اتعلم واعمل واعالج ، ولكن ليس من معدى ايضاً في أن احصل على هذه الحريات الأخيرة لأفقد ابسط حرياتي الشخصية . ان امل الحضارة الوحيد في الخلاص اليوم هو ان نعرف كيف نوازن بين الحرية والمساواة ، وبين الفرد والجماعة فلا يطغى احدهما على الآخر .

القاهرة **يوسف الشاروني**

صدر حديثاً

موتى بلا قبور

البغي الفاضلة

مسرحيتان

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

في سلسلة "روائع المسرح العالمي"

منشورات دار الآداب

ص.ب ٤١٢٣